سميرة خاشقجي

«لغة المرأة العربية».. في الرواية

إذن.. فلم يكن من الغريب.. أن تطرق المرأة العربية باب الرواية، فحياة المرأة.. في حد ذاتها، وفي كل زمان ومكان، رواية طويلة.. من مفارقات القدر، ما يعجز أي قلم.. عن التعبير به.. أو تعجز المشاعر أن تبوح.

ولكن.. هي فقط المرأة الموهوبة.. التي أعطيت قدراً عظيماً من الموهبة، والنفحة السماوية الشفافة هي التي تستطيع بها التعبير.. والتحليل والإمساك بخيوط أحداث متشابكة، تنسجها.. وتتلاعب بخيوطها وألفاظها، معانيها، وتعبيراتها، وهدفها، ومغزاها.

ومن هذا الخط.. يجيء أدب الرواية وفنها الدرامي.

«سميرة» بنت الجزيرة العربية من هذه النوعيات الفريدة، المميزة في كتابتها للقصة والرواية، فالموهبة تظهر جلية واضحة في «التعبيرات الأدبية» وجزالة اللفظ.. والأسلوب القصصي المتميز.

ولها في بدايات كتاباتها.. لون تنفرد به، فلا تبدأ قصتها تلك البداية المألوفة في سرد الرواية.

ومن هذا.. ما تبدأ به أحداث روايتها.. «الزائر»:

«شيء في أعماق «صابرين».. كان يوحي لها.. بأن هذه الليلة.. ليست مثل أية ليلة أخرى.. الحاسة السادسة عند المرأة.

كان لا بد لهما أن يرتبطا، ولا بد لهما أن يتلاقيا، «سر تلاقي الأرواح» وارتباطهما.. سر خفي!

وهكذا تلاقيا.. «صابرين» والزائر الطبيب «ماهر واصف» في البندقية.

التقت بذلك الزائر.. هذا الحلم الذي تراءى لها، وأصبح واقعاً.. جياشاً.. خفاقاً.. مبهراً.. مذهلاً.. ليلتقي الحلم بالواقع، ولا تدري.. أهو حلم.. أم حقيقة؟!.

آه من المرأة عندما تحب!.. إنها تريد أن تحتضن الدنيا كلها، تهيم مع الأطيار، تحتضن الطبيعة، تغني، تزغرد، تطير!.

الدنيا كلها في عينيها.. مرآة تعكس مشاعرها، تبرق ببريق الفرح، وتنشد أنشودة الكون.. والخلود.

وتعيش «صابرين» حرارة لقاء بحب وشموخ رجل.. وأشواق ألف عام.. من حبيب لم تره إلاّ مؤخراً.

قلم الحب.. وتعبيرات الحب.. السامية.. يضفي عليها أدب الكاتبة.. بهاء.. ورونقاً.

والصدق الغني.. يعطي لهذه التعبيرات معاني تظللها ظلال الموهبة الكامنة في نفس الكاتبة، حتى وكأن كلمات الحب نغم.. يسري في وجدان القارىء، ليجذب كل حواسه.. ويشدها.. بخيوط رقيقة، وتسكب عليه دفئاً.. وخدراً لذيذاً.. رفيع المعنى، يذيب الأفئدة.. ويشجيها.. ويرقى بها الفكر.. إلى علو شاهق.. محلق من أجواء اللانهائية الخالدة.

ولم تكن المرأة العربية بقادرة على التعبير عن مكنونات نفسها، والبوح بأدق أسرار مشاعرها.. وأنوثتها، نتيجة للحصار الفكري الذي وئد فيه فكر المرأة، وكان الخوف الأزلي.. بالتعبير عن أحاسيسها.. يمنعها وينأى بها عن الجهر بهذه الأحاسيس خوفاً، وتخوفاً من مجتمع لائم، بل وما زالت المرأة متخوفة من الإفصاح عن أدق مشاعرها الأنثوية ونداءات قلبها حين يخفق بالحب.

وهذه هي المرأة حينما تكتب عن الحب، وبذلك.. أعطت الفرصة للرجل أن يعبر عن مشاعرها.. وكان تعبيره غريباً.. بعيداً كل البعد.. عن صدق الانفعالات.. وتجربة النبض الحار الجيَّاش!.

ولغة الحب.. في كتابات المرأة.. ما زالت تتعثر، فإنها حينما تقترب من التخيل العاطفي.. والجنس.. وتحاول أن تقترب من القارىء بصدق، لا تقابل كتاباتها إلاّ بالاستهجان، بل الاحتقار والشك، وهذا هو ما يدعو المرأة الكاتبة.. إلى فرض قيود على قلمها.. خوفاً من النظرات اللائمة، ومن مجتمع قاسٍ، ما زال يكبِّل المرأة بقيوده.. وأغلاله!.

ولكن.. بكل الفرح والترحاب، أرى أن قلم الكاتبة «سميرة خاشقجي» قد تخطى سياج اللوم، وتحرر من ربقة الأسر، وانطلق إلى عالم رحب واسع من التحرر الفكري والعاطفي.. ليعبر ويصور ويصف، ويحكي مشاعر جياشة، تفيض بها جنبات «صابرين» بطلة روايتها «الزائر».. من نبض.. رفيع.. مثير، جياش المعاني الرقيقة، فالحب عندها.. مجد.. وسؤدد، رفعة وسمو.. تتجلى الشفافية في كل نبضاته.. وترتقي به في رومانسية حالمة.

إن المرأة لا تستطيع أن تنسى أشياء كثيرة، لا تستطيع أن تنسى أول حب.. دق على أبواب قلبها، لا تستطيع أن تنسى الرجل الذي حرك مشاعرها، ولا تستطيع أن تنسى.. الكلمات.. والهمسات الرقيقة، ولا تستطيع أن تنسى حبّاً.. يلح عليها بإصرار وعناد، وكان الدكتور «ماهر واصف» هو كل هذه المعاني.. في وقت واحد.

وتأتي مفاجأة القدر..

هذا الطبيب.. الحبيب.. متزوج؟

كل هذا الخدر في المشاعر، كل هذه المعاني المنسابة من الأحاسيس في ترابط عجيب.. قدر عجيب، وقدر أفلح في اختيار قصة حب.. تائهة المعنى، ضائعة النهاية.

فيا له من قدر.. ويا ويلنا من أقدارنا!

وما أقسى صدمات الحب على مشاعر المرأة وما أمرّ جراحاتها!.

* * *

- ومن لمحات قلم «بنت الجزيرة العربية» ولغتها الروائية، نرى أنها من صاحبات الحس المرهف، والمشاعر الدافئة الفياضة بالمعاني السامية النبيلة، والرومانسية التي تتصف بها المرأة الأديبة والشاعرة الموهوبة، ولنرى أنها امتداد «لمي زيادة» ومعاصرة لكاتبة هذه السطور.. ثم من جيل الشباب.. تقترب منها «عائشة أبو النور».

فالرواية تأخذ فكرتها.. وتتبلور بأحاسيس مضيئة.. تنبثق من لحظة إبداع، فيشتعل بها هذا القلم.. ليسكب أنّاته الفرحة حيناً، والحزينة.. حيناً آخر، الناي يعزف.. ليخرج نغماً شجياً.. عذباً.. سلساً.. تذوب معه المشاعر والوجدان، وكأن المرأة.. هي المرأة.. متى أنعم الله عليها بموهبة الفكر، وأعطاها كنوز العلم والمعرفة، تتدفق موهبتها.. لتحتضن العالم كله.. بحنانها، وعطائها الفكري الخلاّق.

أهي طبيعة المرأة.. صاحبة رسالة الأمومة.. والخلق الأعظم، فمن تنجب طفلاً.. استكن في أحشائها تسعة أشهر.. لصيقاً بشرايينها ونبضها، أنفاسها وحياتها، لتنجب رواية عاصرت معها معاناة فكرها، أنّات أنفاسها، وشرود ذهنها، قلقها وحيرتها، تشتتها وعدم استقرارها، هائمة.. ساهمة.. تائهة.. تستجلب الوحي، وتنادي الإلهام، تتألم، تعاني، تئن، تتوجع، تذوب، ثم تتمخض الرواية في النهاية.. وليداً.. من فكرة نبتت، أو من حادثة مرت، أو من معاناة شخصية، تقلبت فيها الكاتبة بين أحضان الألم.. وعذابات الانصهار، في بوتقة.. تشتعل بتوهج النار المقدسة.. المشعة بكل إشعاعات الفكر الملهم.. المتدفق!.

فالمرأة هي الأرض، هي الأم، هي الوجود.. الإنساني، والكاتبة هي خالقة هذا الوجود، وهذا المجتمع من الفكر والعطاء.. والإيحاء.. والتقدم.

وتعتبر «ميّ زيادة» من هذه المدرسة الرومانسية.. التي وضحت، وتركت طابعها.. وانطباعها على كل ما كتبت.. وما أنتجت، ونسجل هذا اللون الحاني.. في حوار رومانسي رقيق، من رواية «ميّ» «رجوع الموجة» بين «مرجريت» و«ألبير»:

«فرفع بصره إليها.. وقال بصوت ضعيف جدّاً.. تكاد تخنقه العبرات:

- لا تتركيني..

- أقسم لك بأني باقية عندك حتى تشفى.

- إذاً.. لأجل الحب.. لا تتركيني أموت وحدي.

- بعد عمر طويل..

ثم صمتا وقتاً طويلاً.. كان فيه «ألبير» ضاغطاً على يدها.. وهي تحملق به،

«إذا ما رحل عني.. فإنه يأخذ معه قلبي.. وشيئاً من حياتي، بل يا ليتني أرحل معه.. ونتحد سوياً في الأبدية، بعد أن افترقنا في هذه الحياة.. ولم لا أدفن بقرب جثته؟! يا ترى.. وهل من سرور بعده في هذه الدنيا؟! لا لعمري.. لله ما أعذب الموت.. متحدين، نعم.. وقد تجاذبنا الحديث مراراً بهذا الموضوع.. قبل الانفصال، وهو.. أن نموت في ساعة واحدة. إن حياتي بعده.. مرة للغاية، ولا بد من موتي في الغد. وما هو الفرق بين اليوم والغد؟.. الفرق هو أن موتي معه اليوم.. أعذب من موتي في الغد، فيا ليتني أموت معه.. لتطير روحي مع روح من أحب، حيث تتماسكان في الفضاء وتجتمعان من غير انفصال إلى الأبد.

فتح «ألبير» المنازع عينيه.. ناظراً إليها، فخال لها أن ذلك البصر الذي أضحى بعيداً.. يشير إليها.. لتأتي إليه، وابتسمت ونظرت في وجهه بحرقة هذا مقدارها، مريدة أن تطبع صورته في ذهنها، وتنقش أسرة وجهه على صفحات قلبها.

تصورت أنه وحيد فريد في هذا اللون، بل إنه.. هو العالم بأسره.. فإذا ما مات.. فماذا يبقى يا ترى؟!».

هذه المناجاة الصامتة.. الغارقة في الرومانسية.. فكأنها تتسلسل، وتمتد في زمن لاحق.. لزمن سابق، كانت فيه الرومانسية شائعة.. محببة.. نتيجة للحياة المثالية، والتعلق بكل ما هو جميل وحلو في هذه الحياة.

* * *

ـ ونقرأ لكاتبة شابة.. ثائرة العواطف، متأججة النبضات، رومانسية القلم.. تخط أنَّاتها وتسكبها زفرات حارة، حتى لا ينضب القلم الرومانسي الشفاف.. بتواصل الأجيال، في روايتها «مسافر في دمي».. تكتب «عائشة أبو النور» بدماء القلب.. ما تختلج به جوانحها:

«حبيبي.. لم أنسَ.. لكن وحدي.. لا أستطيع، التيارات المتصارعة أقوى مني. كل تيار يريد أن يسحبني في اتجاه، يريد أن يمزقني.. ويلتهمني.. ويتقاسمني إلى أن أصبح فتاتاً، وأنا أصارع لأصمد.. بشراسة.. أتشبث بذكراك.. بكلماتك.. أقول لنفسي:

ولو كنا في هذا العالم.. اثنين.. يسبحان ضد التيار، يصارعان الطوفان.. فهذا يكفي، لأننا ونحن نسير عكس الطريق.. نستطيع أن نصحب معنا المزيد، نصنع سفينة نوح.. لننجو ومن معنا من الطوفان.

لكنني وحدي.. وحدي.. وأنت بعيد، وصوتك بيت.. وكلماتي.. وكلماتك معبد، تزلزل أعمدته الفيضانات المسعورة.. وأنا أخاف الانهيار، حبيبي.. أنقذني.. فأنا خائفة.. خائفة من الانهيار.

* * *

وليس الأسلوب هو الذي يحدد لغة الرواية، ولكن الحبكة الفنية.. وترابط الحدث.. الذي يهز المشاعر.. ليصل بنا إلى ذروة المشكلة

العاطفية، فالزائر طبيب متزوج.. و«صابرين» تحبه.. وانتصر القلب.. وتبعت الحبيب، ولكن.. هل يوافق الأهل على ارتباط فتاتهم برجل متزوج؟!

ولكنها.. ما كادت تصل إلى بيت أسرتها، حتى اكتشفت أنها كانت مدفوعة بنداء القلب.. إنها تستعطف الأب:

- يا أبي.. هذا هو الحب.. الذي دخل قلبي.. فلا تحرمني منه.

الأب يردد في حزم:

- يا مجنونة.. ليس هذا هو الحب.. هذا وهم.. يبديه لك رجل مجرّب،

وكان موقف الأب.. صارماً مع الزائر:

- أهذا أنت الذي تريد أن تحطم حياة ابنتي.. وتقضي على مستقبلها؟

والنتيجة.. أن والدها.. قد رفض طلب الزائر.. رفضاً قاطعاً،

صاحت وهي تصرخ.. وتسقط في غيبوبة..:

- لقد قتلتني يا أبي.. لقد قتلتني يا أبي!».

* * *

وتفنى صابرين في عذابات الحرمان..

فالحب قد ولّى وراح.

وهكذا.. عندما تكتب «سميرة خاشقجي» عن الحب.. فهي تحلله، وتحلله بكل لغة.. حتى في لغة المقالة، وتفسره فيها.. تفسيراً.. يقرب إلى العقل والمنطق، وتعود به إلى الجذور التي تصنع معاني هذا الحب، والإنسان هو نتاج بصمات طفولته، لذلك لا يشعر بالاستقرار من عاش طفولة قلقة، ولا يشعر بالحب من عاش طفولة ممزقة، ولا يملك القدرة على العطاء.. من عاش طفولة قاسية، ولا يقدر على البذل من تربى على الأنانية، ولا يدرك جمال الورود.. من أدمت قدميه.. الأشواك!.

إن الحب.. في لغة الكاتبة.. عطاء، والحب تضحية.. والحب بذل.. وفداء، والحرمان من الحب.. يمكن التغلب عليه.. بالعزيمة.. وقوة الإرادة، فالمرأة ضعف.. وقوة، و«صابرين» أيضاً لا تقبل أن تعيش مهزومة أمام الحب، والإرادة جعلتها تتغلب على محنتها، فالمرأة في لغة «سميرة خاشقجي» هي القوة.. وهي الإرادة و[illegible] ففي ضعفها قوة.. وفي قوتها ضعف.. فهي أضعف من الرجل.. وأقوى منه في آن واحد، وحياتها.. صراع بين الاثنين.

لقد كان تيار العواطف أقوى منها في فترة من الفترات، ولكنه لا يجوز أن يجرفها هذا التيار إلى الأبد، ثم إنه لا يصح لمثلها أن يموت من الحب، إنها لا بد وأن تثبت ذاتها.. وتؤكد نفسها.. لتعود إلى عملها.. بأفكار ومشروعات فنية جديدة، فهي «مهندسة ديكور»!

وهكذا.. يشدّ قلم المرأة الكاتبة.. أزر المرأة في الرواية ليقف بجانبها، ويعطيها من ضعفها قوة.. ومن هزيمتها انتصاراً!.

وتعرض الكاتبة في هذه الرواية قضايا تمس حياة المرأة وكيانها. فبعد أن تعرضت لقضية «الحب»، ثم قضية «القوة والضعف في المرأة»، نراها تتعرض لقضية «المرأة والعمل».

«فصابرين» أثبتت.. أن الفشل في الحب.. لا يعني الفشل في الحياة، وكان العمل.. هو السلاح الذي وقفت به ضد هذا الفشل.. لتجلس على قمة عمل.. كمديرة مسؤولة، ولتثبت عن جدارة كفاءة المرأة.. ودورها القيادي البنّاء في العمل، وهو حق المرأة في العمل.. وحقها في النجاح.. المبني على الكفاءة.

وإذا كانت المرأة في العمل هي رئيسة.. فكيف يكون مرؤوسها.. وهو رجل.. وكيف يعاملها؟!.

هل تتساوى العواطف.. كما تتساوى حينما يكون نداً لها؟ وهذه قضية.. فلا يقبل رجل.. أي رجل.. رئاسة امرأة.. أيّاً كانت، فما باله

بالحب.. قطعاً هو يتحايل.. يرائي.. يتملق.. لأن في يدها مصير مستقبله الوظيفي، هل يمكن أن تصدق امرأة مرؤوسها.. وهو يتقدم إليها بعواطفه!؟

إنها مشكلة. مشكلة أزلية تعاني منها المرأة العاملة.. مهما ارتقت العقول، ومهما تقدم المجتمع، فالنظرة إلى المرأة العاملة ما زالت كما هي، فما بالك لو كانت رئيسة.. وزوجها هو.. المرؤوس؟!

وهذا بالفعل ما أجابت عنه صابرين:

«المشكلة أن الرجل الشرقي.. يرفض من أعماقه أن يعمل تحت رئاسة امرأة، فما بالك.. إذا ما كانت هذه المرأة زوجته؟!

ولكن.. «صابرين» ما بالها تستمع إلى همسات المهندس «عبد المجيد»، ما بالها لا تقاطعه عندما يطلق كلمات الغزل بلباقة، وما بال عينيها يلمع فيهما بريق مشرق، وأن بشرتها تتلون باللون الوردي، وأن ابتسامة حلوة تتراقص على شفتيها بين الحين والآخر.

لقد كسب المهندس «عبد المجيد».. الجولة، وأعطت «لصابرين» الاقتناع بأن لعواطفها الصوت الأقوى.

* * *

والمرأة لا يسعدها.. أكثر من حديث الحب، ويسعدها أكثر.. عندما تتدافع أنهار الحب من هضاب قلب رجل، مؤكدة لها.. أنها وحدها.. كل الدنيا.. وكل الأمل.. وكل السعادة.

هل الغدر من طبع المرأة.. أو من طبع الرجل؟

لقد فقدت الثقة في كل الرجال.

هل يعود الحب الأول.. مع الحبيب الأول.. الطبيب.. الحبيب.. الزائر، هل يعود.. بعدما مرت بتجربة خيانة وغدر وتلاعب.. من مرؤوس تزوجها..طامعا فى الوصول ..على أكتافها؟

وهل يمكن أن تشعر بالحب الأول.. قويّاً صارخاً.. حارقاً.. كما كان؟!

هل يظل النبض حارّاً.. متدفقاً كما كان في الزمن القديم؟ وهل تتعانق القلوب.. وترتجف الشفاه.. ويلمع البريق.. بوميض جذاب؟

الصراع قوي.. بين العقل والقلب. لقد مرت هذه الأنثى.. بتجارب عاطفية.. هدمت ثقتها في الرجل، ومع أن الظروف مواتية للارتباط بعد أن توفيت زوجة «الزائر».. وانفصلت هي عن زوجها الغادر، إلاّ أن صوت العقل.. طغى.. وتجبر.. وأنار لها بصيرتها.. إذ تخلى عنها الدكتور «ماهر» في وقت كانت في أشد الحاجة إليه، وهو يعود الآن.. بعد أن خلا له الجو.. ولكنها صمدت.. وصممت، وقررت ألاّ تخوض تجربة أخرى مع الرجل.. يكفيها ما حدث!

* * *

إن لغة الرواية في أدب «سميرة خاشقجي» يتميز بالأسلوب الراقي.. والتعبيرات الأنثوية.. الشفافة.. ويتجلى الخط الرومانسي.. واضحاً في كل كلمة.. وكل تعبير، كلمات صادرة من القلب.. بإحساس دافق فيّاض من الشاعرية والجمال.

ويختلط عندها الحب.. بالكرامة، ويصير الصراع الأبدي.. كما سجلته «غادة السمان» في روايتها.. «لا بحر في بيروت» فاللغة يفوح منها عبير الحب، وينتفض بالكرامة.. حين تقول:

«الحب.. ذلك الطائر العجيب.. الذي اتخذ له عشاً في صدرها الفتي، لا يهدأ أبداً تخفق أجنحته.. أبداً يغني.. يهذي.. يضرب بمنقاره، يريد أن يأكل كل ما في أعماقها.. كي لا يبقى سواه، كي تصير لا شيء.. سوى عش كبير له.. وهي تقاوم وتتمرد.. لن تسمح له بالتسلل إلى رأسها الصغير. تريد أن تحافظ على أشيائها الأخرى الكثيرة، إرادتها.. عقلها.. وما يشغل هذا العقل الساذج.. المتفتح، والعالم الرائع الذي لا تريد

لنفسها.. أن تراه من زاوية واحدة.. خلال عينيّ «أيمن» أو الزاوية التي يحددها هو لها.

إنها تريد.. منذ تخرجت من مدرسة الراهبات أن تحتفظ لنفسها.. بعينيها.. ووجهات نظرها، لا.. لن تسمح للطير النهم بالسيطرة عليها، لن تكون مجرد جوف.. يردد أصداء.. العصفور الشره.

الحب حصار.. والمرأة تريد الحب.. والكرامة.. والشخصية، وكل هذا.. يضيع منها في إسار الحب، والمرأة العربية الأصيلة.. تصون كرامتها.. من قبل حبها.

* * *

وفي مدرسة الحياة.. عاشت وتعايشت.. «بنت الجزيرة العربية» الكاتبة الموهوبة.. «سميرة محمد خالد خاشقجي» عاشت الحياة بأبعادها، وتعلمت في مدرستها، وأدركت معناها.. ومغزاها، وخرجت بمضمون موجز لهذه الحياة.. وتعبير ردَّدته.. وسجَّلته في رحلتها مع الحياة، «فالحياة جميلة حين نحياها.. ومؤلمة.. حين لا نحياها».

وعاش معها شعار حياتها.. وترجمته إلى لغة.. لغة عميقة الوعي والمدلول، عميقة الأثر والتأثير، هذه اللغة التي لا يفهمها.. ولا يدركها إلاّ العقل المفكر الواعي، والفكر الثاقب الأصيل، والموهبة الأدبية المتمكنة لكل إرهاصات المشاعر، وكل إدراكات الحياة الفلسفية.. والمنطقية.

فمن الجانب الفلسفي.. نرى أن لغة بنت الجزيرة العربية.. هي تعميق لكل معاني الجمال.. سواء أكانت مادية أم معنوية.

ومن جانبها التحليلي.. نرى أن لغتها التحليلية.. هي تبسيط لمفهوم الأشياء.. وتحليل لمعانيها، وعن لغة متمكنة واقتناع وإقناع.. تحلل هذه الحياة، وتؤكد أن الخير عميق الجذور.. وأصيل في هذه الحياة الإنسانية، وأن الشر.. مرذول ودخيل.. ولا بد وأن ينتصر الخير في النهاية.

إن نبض الحياة عند «سميرة خاشقجي» هو قلمها السيَّال.. النابض المعاني.. بتطلعات خيِّرة، ونظرة متفائلة للإنسانية، وحب يشمل ويحتضن كل الكائنات.. وهذه هي طبيعة المرأة العربية. من يدرك أعماقها.. ويتسلل إلى حنايا صدرها.. وتتجاوب نبضاته مع نبضاتها.. يجد فيها حنان الأمومة، ولغة الحب الدافق.. للكائنات جميعاً.

وفلسفة الحياة.. تستدعي البحث والتنقيب عن الحقيقة.. وعن سر الحياة، وغاص قلب الكاتبة الأديبة.. من خلال رواياتها.. وآرائها.. وفكرها.. في متاهات هذه الحياة، وحاول قلمها.. بما أوتي من ثقة في نبضه.. وفي خطه.. أن يصور الحياة في صورتها الحقيقية، بقدر ما أوتي هذا القلم.. من خبرة وتعمق.. في تلوين أفكار هذه الحياة، والزمن.. هو العنصر الأساسي في الحياة.. فالزمن لا يتوقف، والحياة تسير.. بنبضها.. وحسِّها.. بفرحها.. وحزنها.. بآمالها.. ويأسها.

وبنت الجزيرة العربية.. تؤمن إيماناً عظيماً.. برسالتها الأدبية.. والاجتماعية.. والإنسانية، وتشارك المرأة العربية.. أفراحها.. وأتراحها.. أعيادها.. وأيامها، فهي تعيش بقلمها مع المرأة السعودية.. والمرأة المصرية، السودانية والتونسية، المغربية والعراقية، الكويتية واليمنية، وفي كل بلد عربي.. يعيش قلمها لغة هذا البلد، أو هي لغة موحدة.. يجمعها فكر واحد.

والمرأة كما تحددها في دراساتها.. هي.. الأم.. والأخت.. والزوجة والابنة، وهذا يعني كما تقول: «إنها الجذور في حياة المجتمع.. والرجل» وهذه الجذور تستطيع أن تمتد في عمق الحياة الاجتماعية.. وأن تخلق مناخاً اجتماعياً جديداً.

* * *

والدعوة التي تدعوها «بنت الجزيرة العربية» لا تعني بأن تقفز المرأة من فراغ، ولكنها تريد أن تكون هناك حركة تطور.. تستند إلى القيم..

والمبادىء، وتعتنق الأصالة والعصرية.. في وقت واحد، ثم أن يكون هذا التطور شاملاً لكل المجتمعات العربية، لتحقق المرأة رسالتها في إقامة كيان اجتماعي.. موحَّد.

لقد نفضت المرأة العربية عن نفسها.. غبار التخلف، واندفعت للمشاركة في ميدان الحياة العامة، وهي في نفس الوقت.. حريصة على أصالتها العربية.

وكان للمرأة الكاتبة دور خلاَّق في هذا التقدم.. وهذا الوعي، ومن خلال الرواية تغلغل هذا القلم في صميم المجتمع، ودخل في حناياه، وتسلل إلى بواطنه.. ودخائله، واكتشف الداء.. ووجد الدواء.

وتشكل لغة الرواية عند «سميرة» بنت الجزيرة العربية.. منهج التحليل النفسي، وتحاول بقدر الإمكان.. فلسفة الأشياء.. الزمان.. والمكان.. في كتابتها، وفي لغتها.. تحليل خاص.. لعواطف ومشاعر المرأة.. فهي تحلل نفسيتها.. اندفاعاتها.. أحاسيسها، حتى دموعها.. تحللها قطرة.. قطرة.. وتجد لكل دمعة.. تحليلاً وسبباً، الفرح.. والخوف.. التعاسة والسعادة.. في لحظات الضعف.. وفي فرحة الانتصار.. فالدموع لغة العيون!.

ومما أثار دهشتي.. هذا التوارد العجيب في حادثة ذرف الدموع التي وقعت لسميرة خاشقجي، ووقعت لي أنا أيضاً، فلم أكن أعرف.. أنه يمكن أن تتشابه مثل هذه الحوادث.. في وقت واحد، ومع كاتبتين عربيتين.. بنفس ملابسات ظروفهما.. وفي طفولتهما.. ومع.. الوالد بالذات.

ففي غمار دراستي وتحليلي لأبعاد كتابات وشخصية «سميرة خاشقجي» ولغتها الروائية، طالعتني فقرة في كتابها «رحلة الحياة» شدت كل انتباهي، لأنها كانت تصف نفسي.. وما وقع لي.. وفي طفولتي.. إذ تقول:

«كنت طفلة صغيرة.. يوم بكيت طويلاً على كلب.. دهسته سيارة في الشارع، وكان أبي يبكي يومئذٍ بسبب شيء خطير.. اسمه «حرب ١٩٤٨م ـ

فقال لي:

«وفِّري دموعك.. فسوف تحتاجينها فيما بعد!».

يا لمفارقات القدر!

تماماً نفس ما حدث لي.. وسجَّلته في روايتي.. «شيء في داخلي»:

«كانت لي دنياي.. من الأزاهير والورود.. وحديقتي.. ومكتبتي.. وكلابي الصغيرة التي أحبها، وفي يوم نزلت إلى الحديقة فوجدت «كيكا» الكلبة الرقيقة الصغيرة.. قد ماتت. بكيت.. وذرفت الدموع، حزنت عليها حزناً لا مثيل له، لففتها بقماش من الحرير الأبيض.. وحفرت حفرة في الحديقة.. لأدفنها فيها، ونزل أبي إلى الحديقة، رأى لوعتي ومرارة آلامي، رأى دموعي وبكائي.. ونهنهتي.. شهقاتي وزفراتي وأنَّاتي، والكلبة أمامي.. أرثيها.. وأبكيها بدم.. ودموع. نظر إليّ أبي.. نظرة غريبة.. بحزن وإشفاق.. وقال لي بألم شديد:

ـ لن تبكي مثل هذا البكاء يوم أموت يا بنيتي!

وكانت طعنة في فؤادي الصغير.. وجمرة نار.. ما زالت تشتعل.. وتلتهب.. كلما تذكرت هذه الحادثة.. وبعد موت أبي.. وبعد عمر طويل».

للدموع فلسفة.. ولتوارد الخواطر.. فلسفة أخرى، «بنت الجزيرة العربية» من السعودية.. وأنا في «منيا القمح» شرقية، وتحدث حادثة مماثلة.. في انصهار مشاعر فتاتين على بعد من المسافات.. وعلى قرب من المشاعر.. فما أعجب هذا.. ما أعجبه!

إنها المرأة العربية.. في كل زمان.. ومكان!

* * *

غادة السمان
«لا بحر في بيروت»

«مي زيادة» و«ابتسامات ودموع»

«عائشة أبو النور» مسافر في دمى

«لوسي يعقوب» «عيون ظالمة»

وتحلل «سميرة» بنت الجزيرة العربية.. معنى هذه الدموع.. وتفسرها بقولها:

«إن في داخل كل إنسان.. يكمن وتر حساس، وهذا الوتر مختبىء.. ولكنه موجود حتى في نفوس.. أكثر الناس قساوة وبرودة، ويكفي أن تبرز صورة ما.. أو تشغل خيالنا قصة ما.. حتى يرن وتر العاطفة، وتظهر الدموع دون تفسير، لكنها ذات معنى.

ولغة «سميرة» تدعو دائماً إلى الحب.. والخير.. والسلام، وتتحيز في لغتها.. دائماً للمرأة.. لأنها كما تقول: ينبوع الحب، ولأنها شجرة الخير.. والعطاء.. ولأنها داعية للسلام.. ليكون لها.. البيت.. والزوج.. والأولاد.

وليس مثل المرأة من يأمل في الحياة. فهي قد تعودت أن تحتضن ميلاد الحياة في أعماقها، إلى أن يصبح كياناً.. فيخرج إلى نور الحياة.

وهي قد تعودت أن تحتضن هذا الكيان الصغير، إلى أن يصبح قادراً على مواجهة الحياة، وهي قد تعودت أن تسهر عليه حباً وحناناً، وتفاهماً واستقراراً، فالمرأة في الحقيقة.. ليست فرصة الحياة.. وليست أمل الحياة، وإنما هي.. «عنوان الحياة» إن لم تكن هي الحياة نفسها. ومن أجل ذلك.. فهي أحرص الناس على الحياة، على الأمل، على الحب، على الاستقرار، على السعادة، على كل المعاني العظيمة.. والأهداف النبيلة.

ولن تقف المرأة وحدها، ولن تستقيم لغتها.. بثقة.. إلاّ بمساندة الرجل لهذا العطاء، وهذه المساندة تتحقق.. عندما ينظر الرجل فعلاً إلى المرأة.. على أنها الأم، والأخت، والزوجة والابنة. إن هذه النظرة.. كفيلة بأن تدفعه إلى موقف الحب والتعاطف، وإلى تقدير المرأة.. وإلى احترام دورها.. ورسالتها واحترام فكرها.. وقلمها، وإلى إتاحة التعبير عن هذا الفكر.. بالقلم، من ثقة واعتداد بالنفس دون ما خوف.. ولا وجل.

إن سميرة تدرك.. وتنادي.. وتؤكد بالفكر والقلم، أنه لا سبيل إلى

رفع هذا الظلم.. إلاّ بالاعتراف بكيان المرأة وكرامتها، وأحقيتها في الحياة، وقدرتها على المشاركة والتصرف، وتقديرها للأمور والمواقف، وإتاحة الفرصة أمامها للتعبير عن فكرها.. وآرائها في الحياة، وفي الحب.. وفي المجتمع.. بلا خوف.. والتعبير عن مشاعرها، بقلم الأنثى المدركة لحقيقة هذه المشاعر. فلا يعبِّر عن أهازيج المرأة.. إلا المرأة، ولا يمكن لغير قلم الكاتبة.. أن يكتب بصدق عن أحاسيس وانفعالات هذا الكيان الأنثوي المظلوم، إنها ترى بأنه يجب أن تتاح الفرصة للمرأة العربية للمشاركة في ترقية الفكر.. وتنقية المشاعر من الأفكار الهدَّامة، وتربية الأجيال الجديدة التي تصنع الحضارة والأمل.. والمستقبل.. بثقة وحب.. واطمئنان.

فهناك كثير من المشاكل الاجتماعية يمكن أن تنتهي تماماً، يوم أن يعرف المجتمع حقيقة.. ويقبل واقعاً، ويقتنع بأن الحياة.. رجل.. وامرأة، وأن هذه الحياة.. لا يمكن أن تكون وتقوم.. متكاملة البنيان.. وتؤدي رسالتها الإنسانية.. والاجتماعية.. إلاّ بالاعتماد عليهما معاً.. رجلاً.. وامرأة.

ومن المألوف.. أو الشائع أن يكون هناك إنسان.. له الدور المؤثر الفعَّال.. في حياة كل كاتبة، ويهتز قلمها متأثراً بشخصية حبيبة إليها.. وإلى نفسها، ومعظم الكاتبات.. كان الوالد.. هو هذه الشخصية.. ويزداد بي العجب والتعجب.. عندما أقرأ الإهداء على رواية «سميرة» «قطرات من الدموع» التي طبعت في عام ١٩٧٩م، والذي تهديه إلى أبيها.. وتقول له بنبض مشاعرها الرقيقة: «إلى مثلي الأعلى..

إلى الذي بنى نفسه.. بنفسه.. ومجده بيده، إلى الذي بتر بمبضعه آلام المرضى، وسقاهم.. كؤوس الشفاء، إلى الذي أخذ بيدي في طريق المعرفة، وسلك بي.. دروب الحياة.. ومتاهاتها.. حتى وصلت إلى شاطىء الأمان.

إلى الذي غرس في نفسي من الصغر.. حب وطني، إليك يا أبي.. أهدي قصتي».. «قطرات من الدموع».

وكما تمازجت اللغة.. وتآلفت المشاعر.. بين ثلاث كاتبات معاصرات، نعود إلى إهداء لـ«ميّ» سجلته على روايتها المترجمة «الحب الألماني» أو كما سمتها.. «ابتسامات ودموع»، إذ نرى ونلمس.. أهازيج اللغة.. وهمس نبضاتها في لغة الإهداء.. إذ تقول:

«إلى العينين اللتين أطبقهما الموت قبل أن ألثمهما..

إلى الابتسامة التي لا أعرف منها..

إلاّ خيالها إلى الاسم العذب..

الذي لا تهمس به شفتاي دون أن تملأ عينيّ بالدموع..

إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه..

ويتّم فيَّ عاطفة الحب الأخوي..

فحرمني من حنو الأخ وقبلته..

ابتسامته ودمعته..

إلى أخي الوليد الذي تقاسمه..

الأثير.. والثرى..!

إن إرهاصات قلم المرأة الكاتبة.. ليمتد ويترابط.. ويتشكل، وانتماءها العميق لأسرتها.. وحبها.. وعطاءها.. لا حدود له في التعبير عنه.. بلغة تنبض بالحنان.. والحنين.. والحب، ولغة الإهداء في كتب الكاتبات.. لتتمازج بالفعل.. تمازجاً عجيباً، ففي كتابي «عيون ظالمة» الذي أصدرته في عام ١٩٧٠م أهديته إلى أبي في الحياة.. وطه حسين في الفكر.. عبرت فيه بقولي:

«إلى الروح التي عانقت روحي..

إلى لمسة الحب الصافية التي أيقظت..

شعلة عواطفي..

إلى الفكر المتجدد..

إلى شعاع الوجود..

إلى الينبوع المتدفق من العلم والأدب..

إلى نسمة الحياة..

إلى العبير النضر..

إلى من علّمني معنى الحياة..

وملكت به مفاتيح الكون..

إلى الأدب الذي أعشقه..

إلى كل من ساهم في تحرير الفكر..

وانبثاق شعلة الفن..

إلى من أحببت الأدب في صورته..

وألهمني الطريق من هدايته..

واهتزّ قلمي بانتفاضة نفحته..

أهديه «عيون ظالمة»!

* * *

وتأتي «عائشة أبو النور» من جيل الشباب.. ونبضات المشاعر.. والأسلوب.. واللغة.. في استمرارية رائعة.. وشفافية فائقة.. وانتفاضة ثائرة.

ففي عام ١٩٨١م كانت لغة الإهداء في رواية «عائشة أبو النور» «مسافر في دمي».. تقول فيها:

«لأنك جئت أخيراً..

لتثبت لي..

أن خيالي واقع..

ووهمي حقيقة..

أهديتك أحرفاً ونقاطاً..

السفر الذي لا يهدأ في دمي..

* * *

وفي عام ١٩٨٥م - بعد أن عاركت الحياة، وبحثت عن الحقيقة.. عادت إلى نفسها، إلى من كان الحب والهداية.. والحقيقة الأصيلة في حياتها.. كابنة، إلى الأصل الثابت.. والروح المضيئة في حياتها، إلى أبيها.. في روايتها «الإمضاء سلوى»:

«إلى أبي..!

عبد المحسن أبو النور..

الذي جاء إمضاؤه..

على صفحة الحياة..

عملاً.. وإنجازاً..

وجاء إمضائي..

على صفحة الحياة..

حروفاً ونقاطاً..

لنشكل سوياً..

وجهين لعملة واحدة..!

* * *

إن قلم المرأة.. مهما تسامى.. ومهما تعمق، فإن لغته الأصيلة هي «الانتماء للجذور» بأصالة ووفاء.. لمن كان أصل الوجود.. وأصل الحب والحنان، الأب في كل لغة من لغات قلم المرأة الكاتبة.. من تأثرت به.. الأسرة، الدائرة التي تحيط وتلتف بمشاعرها.. وأحاسيسها.. فهي دائماً وأبداً لا تنسى من كان حبها الأول.

* * *

ونعود ـ مرة أخرى ـ إلى الأديبة «سميرة خاشقجي» و«ذكريات دامعة»، حيث تسكب «سميرة» ذكرياتها دموعاً، وتغوص في أعماق نفوس وقلوب.. بلغة دامعة.. حزينة.. عن مآسٍ وفواجع، لتزمُّت عائلي.. أو تعنُّت فكر رجعي.

ويمتد حب الأب.. لينتقل إلى الحبيب، فصورة الأب دائماً.. هي صورة الحبيب، ويختلط الحب في خيال كل أنثى، وترنو إلى حبيب مثالي.. كمثلها الأعلى.. وتتمنى دائماً أن يكون الحبيب.. صورة من الأب الحبيب.

ونرى ذلك ـ بوضوح ـ في «ذكريات دامعة»:

«إلى الحبيب الوحيد..

إن قلبي غلاف لروحك الطاهرة..

وصدري مرتفع لذكرى أيامنا..

التي مرت بها الأيام..

وأصبح هذا الفؤاد مركزاً..

يشع بأحلامك وأمانيك وآمالك..

أيها الحبيب الوحيد..

أتذكر أيام حبنا أتذكر أيام صبانا..

أتذكر أيام شبابنا..

نعم تذكر والذكرى خير سلوى..

أيها الحبيب الوحيد..

لك أهدي هذه القصة..

وهي من خلجات ومن وحي حبي..

كتبتها أنامل عاشت بين أناملك..!

* * *

فيا لقلم المرأة ويا لحرارة عواطفها..

حين تعبِّر عنها بلغة الحب الوفي..

الصادق الحنون..

فالمرأة هي الحنان..

* * *

وتطالعنا المقدمة.. في رواية «ذكريات دامعة» بإبهار شيق جذاب.. يشد القارىء.. ويغريه بقراءة هذه الرواية، وكأنها قصة لقاء وتعارف.. بكاتبة عربية.. تسمى «بنت الجزيرة العربية»، يقدمها إلينا.. سمو الأمير «نواف بن عبد العزيز آل سعود»، ويسعدنا كما يسعد القارىء قطعاً أن يلتقي.. ويتعارف.. ويقرأ هذه المقدمة:

«سميرة» بنت الجزيرة العربية.. كانت المصادفة وحدها.. هي التي عرفتني بشخصيتها، إذ حدث في مناسبة.. أنني كنت أزور صديقاً.. وفي مجلسنا.. قدم لي الصديق قصة.. وطلب مني أن أطالعها، فألقيت نظرة على عنوانها.. فإذا بها: «ودعت أمالي» ومؤلفتها.. «بنت الجزيرة العربية»، فرفعت نظري إليه متسائلاً «بنت الجزيرة» من هي؟ فنظر إليّ الصديق قائلاً: «سميرة» ألا تعرفها، قلت: هذا ما أراه أمامي على الغلاف.. لكن.. من

تكون..؟.. قال صديقي: لا أدري.. فلقد كنت أعتقد أنك أعلم بها مني!

وعدت إلى القصة.. أقلب صفحاتها.. فوجدت أبطالها يتحاورون.. بلهجة غير لهجة الجزيرة، فأعدت القصة إليه وأنا أقول: لا بد أنها بعيدة عن هذه الجزيرة.. وسألته: كيف حصلت عليها؟.. قال: اشتريتها بعد أن جذبني عنوانها.. واسم مؤلفتها.

ولم أكن أعتقد أن الصدفة وحدها.. هي التي سوف تطلعني على شخصية «بنت الجزيرة».. وقرأت بعد ذلك قصة بنت الجزيرة في مجلة معروفة، وطالعت أيضاً قصتها «ذكريات دامعة»، وهنا ظهرت حقيقة القصد من هذه الصفة التي أطلقتها على نفسها.. مؤلفتنا هذه، وكأنما أرادت أن تعبِّر بطرفٍ خفي.. عما في قلوب بنات جزيرتها.. وعما يجول بخواطرهن. كانت تصور المأساة.. والدموع في عيون أبطال قصصها، وكأنها تصور حوادث واقعة بالفعل في أحد البيوت، وترشد بلسان هؤلاء الأبطال.. إلى ما تتعرض له بنات الجزيرة.. من مآسٍ.

وقد تبين لي القصد من اتجاهها إلى الكتابة بلهجة تختلف عن لهجة الجزيرة، وكأنها أرادت.. ـ والعذر معها ـ أن تصور لمجتمعها.. مجتمعاً آخر في غير جزيرتها، تأخذ فيه الفتاة حقها المفروض في كتاب الله، ومما دعاها إلى عدم ذكر اسمها.. الاعتبارات العائلية.. والتقاليد المتوارثة.. التي تحرص فتيات العائلات المثقفة.. على احترامها.

وليت بنت الجزيرة.. حدَّثت الآباء والأمهات.. على أن هذه الدموع تذرف في كل ناحية من نواحي بيوتهم.. بسبب التزمُّت العائلي، الذي يجبر الفتاة على الارتباط بمن لا تحب.. وهم يعتقدون خطأ أنهم أعلم بمصلحتها منها.

انظروا أيها الآباء والأمهات.. انظروا إلى هذه الدموع.. وتساءلوا: لماذا تسكب بنت الجزيرة كل هذه الدموع في كتابتها؟ انظروا إليها.. وخذوا عنها العِبَر.. وارسموا مستقبلاً زاهراً لأجيالكم.. حتى تجف دموع بناتكم؟

ولي كلمة أخيرة.. أننا لو تذكرنا «ذكرياتنا الدامعة» لما ابتسمنا أبداً، فإلى الجزيرة أقدم «بنت الجزيرة» في قصتها الخالدة.. «ذكريات دامعة».

* * *

وتحكي قصة «ذكريات دامعة» عن سيدة تستعيد ذكرياتها.. دامعة العينين ـ عندما كانت وحيدة بعد أن رحل عنها زوجها، وسافرت ابنتها هي الأخرى مع زوجها، وتركت لها فراغاً كبيراً، وكانت رسائل ابنتها «سلوى» هي العزاء الوحيد لها.

وفي يوم.. وصل الأم.. أجمل خطاب.. وأجمل خبر، ابنتها.. إنها تنتظر حادثاً سعيداً، وتوالت الرسائل.. وأخبار الجنين.. ولكن فجأة!.. انقطعت رسائل سلوى، وانتابت الهواجس الأم، وأرسلت الرسالة تلو الرسالة.. ولكن لم يصلها أي رد، وكادت الأم أن تجن، ولكن في عصر يوم جمعة.. وقفت سيارة أمام منزلها.. ونزل منها زوج ابنتها.. ولم تجد ابنتها، ولكن ما رأته كان فقط لفافة من القماش.. يطل منها رأس طفل وليد.. وتساءلت الأم في خوف عن ابنتها، وكانت الإجابة: «بأن الله قد استرد وديعته»!

وكانت الصدمة أكبر من أن تتحملها هذه الأم البائسة حتى صارت في حالة تقترب فيها من الموت..

وعند سفر زوج الابنة.. قدَّم لها رسالة من ابنتها.. كانت قد كتبتها وهي على فراش الموت.. توصيها فيها بابنتها، وترجو منها أن تحافظ عليها وأن ترعاها من بعد موتها.

وكان العهد الذي قطعته الأم على نفسها.. أن تجعل حياة الطفلة.. امتداداً لحياة أمها.. وأسمت الوليدة «عهد».

وأصبحت الجدة كارهة لحياتها.. لولا العهد الذي قطعته على نفسها.. لرعاية طفلة ابنتها.. حفيدتها اليتيمة، وكبرت عهد.. وزاملت صديقة تدعى «ندى».. واعتادت الصديقتان أن تلعبا بالكرة في الحديقة،

وإذا بالكرة.. تقع في حديقة جيرانها.. ويأتي فتى.. ليحضر إليها الكرة.

كان «علاء» في السابعة عشرة من عمره، ومن يومها.. وعلاء يرى «عهداً».. كل صباح.. ويلقي عليها التحية.

وفي يوم عيد ميلاد «عهد» دعت جيرانها، وقدم لها «علاء» هدية.. وهي قلب ذهبي صغير نقش عليه حرفان من اسميهما.

وكان الشعور الفياض بين قلبيهما.. والارتباط الروحي.

وكان «لعلاء» طموح وأمل في مستقبل.. يعالج فيه عيوب المجتمع.. بالنقد والتوجيه، عن طريق.. دراسته للأدب.. واشتغاله بالصحافة.

وكان «علاء» قد حرم من أمه التي ماتت وهو في العاشرة، و«عهد» ولدت محرومة من الأم، فكأن الزمن قد جمع بين قلبين يتيمين ارتباطا بلوعة الحرمان.

وجاء حبهما طبيعيّاً.. كتفتح الزهر، كشروق الشمس، كطلوع الربيع، لا تصنُّع فيه.. ولا رياء.

وفي الليلة.. عندما أخبرها والدها بقدوم الدكتور عادل من ألمانيا.. انتاب «عهد» كابوسٌ مزعجٌ.. ورأت نفسها هي و«علاء» يقفان على صخرة عالية.. وفجأة انشقّت الصخرة.. قسمين.. وفرّقت بينهما، ورأت «علاء» يهوي في مكان سحيق.. وهي تصيح متجمدة على حافة الصخرة.

ولكنها لم تكف عن لقاء «علاء». كانا على الصخور يلتقيان، وعلى الرمال.. يمرحان، وفي البحر يتناجيان، وعند الساعة السابعة.. يهتف كلاهما باسم حبيبه. لقد تفتح قلباهما بأعنف حب.. وكان كل شيء يبدو جميلاً لهما.. حينما يكونان معاً، يعيش كل منهما ليومه.. وحبه.. ونما حبهما.. وترعرع.

وعاش «علاء».. وحلم.. يريد أن يحققه، وينجح.. ويكوِّن مستقبله.. ويتقدم لخطبة «عهد»، وبعد ذلك يتزوجان.. ويعيشان في ڤيلا صغيرة بالإسكندرية.. تقع وسط الرمال التي كانا يمرحان فيها.

ولعب القدر لعبته المعهودة، بعد نجاح «علاء».. لم يتحقق الوعد.. وكان أن سافر إلى سويسرا لإتمام تعليمه.. و«عهد» عاهدته أن ترعى عهده.. بقلبها.

وكان كل شيء.. يبكي لفراقهما.. وأخذت الباخرة.. تبتعد «بعلاء»، وأطلت من عينيه.. نظرة صامتة وهو يلمح «عهداً» من بعيد، ثم غربت شمس اليوم.. فغربت معها.. كل أيام السعادة.

تحابّا.. وتعاهدا.. وتفارقا..!

* * *

وعانت «عهد» أيام جهاد ومرض.. فكانت تشعر بحزن دفين، إن فراق «علاء» قد أدمى قلبها، وأحدث فراغاً كبيراً في حياتها، كانت تذهب كل يوم إلى مكان لقائهما، وتجلس على الصخرة وحيدة.. وتتذكره، وحين تدق الساعة السابعة.. تتجه بفكرها إلى «علاء».. وتهتف باسمه.. وتناجيه.

وأتى البريد.. ليرطب مشاعر القلب المشتاق.. وأتى عنوان الحبيب.. ليتراسلا على البعد.

وأخذت «عهد» تميل إلى الوحدة، وانطوت على المذاكرة. وقراءة الكتب، وكانت الجدة تحاول أن تعرف السبب في حزن حفيدتها، ولكنها فشلت في كشف النقاب عن سبب حزنها، لحرصها على كتمان سر حبها.

ومرضت الجدة.. وكان الدكتور «عادل».. هو الطبيب المعالج.

وطلب الدكتور «عادل» يد «عهد» من جدتها.. ولكن «عهد» رفضت بشدة، وتعللت برغبتها في إتمام دراستها، وكنت إجابته بأنه سينتظرها إلى أن توافق.

إنها دائماً.. الذكريات الدامعة.. «عهد».. تتذكر.. وتتذكر.. وتبكي..!

«علاء» في وحدته.. وغربته.. يستمع لعزف البيانو، لمقطوعة حزينة.. ويسجلها.. ويعيش في ذكرياته.. في مقطوعة «ذكريات»، والحياة كلها دموع وآلام.. ولحظات السعادة فيها ضئيلة.. لا تقاس بأيام تعاستها.. وذكرياتها الحزينة.. الدامعة.

وفي خطاب حزين.. بعثت به «عهد».. «لعلاء».. نرى مدى التهاب العاطفة.. وتحرك الوجدان نحو الحبيب الغائب، وأسلوب الكاتبة.. يرتعش بنبضات حب.. ملأ شغاف قلب «عهد»، ولغة الحب في أدب رفيع.. رومانسي شفاف.. حين تقول:

«والليل.. البعد.. السكون.. الشوق.. ولكن.. ما هذا الشيء الذي أشعر به.. وأنا بعيدة عنك؟.. هو الفرقة، هو الشوق، هو الحب، ولكن.. ما هو هذا الشيء الذي أعيش عليه.. أو به هذه الأيام، وأنت بعيد عني أيها الحبيب؟».

ويهيم بنا القلم الفياض.. بالعاطفة.. في لغة عذبة.. تترك في النفس شعوراً فياضاً بالحنين والحب.. والأسى، وإعجاباً فائقاً بلغة هذه المناجاة، التي تبعث بها «عهد» إلى حبيبها «علاء».

الأنثى.. قادرة على التعبير، وقلم الكاتبة بقادر على الإفصاح في حرية وصدق.. وتتميز هذه اللغة.. بتفردها الوجداني، حيث لا يستطيع أن يعبر عن مشاعر المرأة عندما تحب.. إلا المرأة نفسها.. وبقلمها.. وبمشاعرها.. وصدق عاطفتها.. وتعبيرها.

وفاض الحب أيضاً بالدكتور «عادل»، وقربت أيام رجوع «علاء».. ولكن القدر عاد.. ليكرر مهزلته الغادرة.

لقد أصيب بارتجاج في المخ.. وبفقدان السمع، إثر صدمة من علو شاهق وهو ينزلق مع أصدقائه في سويسرا.

فيا لسخرية الأقدار، بعد الانتظار.. أخذ الماجستير في الآداب.. وفقد سمعه.. وعليه أن ينتظر عاماً آخر.. قبل أن تجرى له العملية.

وآه.. من ذكرياته الدامعة.. وآه من ذكرياتها هي.. الدامعة.. الدموع تتساقط في صمت.. وتجر الذكريات.

وبعد آلام حزينة.. قبلت خطبتها للدكتور «عادل»، إذ لم يظهر «علاء» في الأفق.

ولكن.. حبها «لعلاء».. وحبه لها.. كيف أحبته بإحساسها.. بكيانها.. بإيمانها؟! كيف أحبته بقلبها.. وروحها.. وكل وجودها؟!.. إنها تحكي لجدتها.. سر حياتها.

وثارت الجدة.. إن المجتمع يرى أن الفتاة إذا أحبت.. كفرت.. وفسقت وفجرت.. وتقول «عهد» لجدتها:

«إن كل ما بينهما.. هي و«علاء».. طاهر.. مقدس..».

وانطوت على نفسها.. وهي ترى قلبها يذبح في معبد الجمود.. قرباناً للتقاليد الموروثة.

وعاش «علاء» في البيت الصغير.. الجميل.. الذي بنى على الرمال، بيت كله روعة وفن وجمال، بيت أحلام حبه.. وخياله.. وعهده مع «عهد»!

وجمع القدر.. بين الزوج.. والحبيب.. دكتور «عادل».. و«علاء».. الكاتب الشهير.. الذي يكتب باسم.. «عصام عزمي».

وكانت التضحية الكبرى.. فالحب عطاء.. والحب فداء.

وكان اللقاء حاراً بين «علاء».. و«عهد»، وكانت حقائق لا أحلام.. وقلباهما.. يخفقان بأروع.. وأنبل.. وأقدس شيء في الوجود.. «يخفقان بالحب».

* * *

وما بين قصة «الزائر».. و«ذكريات دامعة» نرى الفارق الزمني،

والمحور الفني الذي تقوم عليه القصتان، فإن الأنثى.. البطلة في الزائر.. تتغنى بالكبرياء.. وتناسب عواطفها جياشة متكاملة.. مع كبرياء أنوثتها.

وتحكم العقل.. والشخصية.. يفيض على جنبات النفس البشرية للمرأة، والعمل يضفي على شخصيتها الاستقلال الذاتي.. ونضج العاطفة، ولغة الكاتبة.. لا تختلف عاطفياً.. ولكنها.. تجنح إلى الانسياب العاطفي في «ذكريات دامعة»، والعاطفة سيل جارف.. وشلال منهمر.. يفيض على النفس بتدفقها الحار، والتضحية.. التي هي ثوب الحب.. تضفي على شخصيات القصة الثانية.. غلالاً من الارتقاء بالحس، والارتقاء بالأنانية، والارتقاء بالذاتية، وهي أرقى مراتب الحب.. أو الحب.. من أجلّ صوره.. ومعانيه.

وجذالة اللفظ.. وسمو التعبير.. ورقي اللغة.. من السمات المميزة لأدب «سميرة خاشقجي»، فلا يتنازل القلم بتسطير لفظ تحمرّ له الوجنات، أو تعبير صارخ صريح، أو لغة نابية. تجرح العين والحس، بل يتسامى اللفظ.. وترتفع اللغة إلى درجة الشفافية والارتقاء الفكري.. واللفظي، وهذه سمة من سمات المدرسة الرومانسية والأدب الرومانسي، كان دائماً.. لغة العيون، وتشابك الأيدي، ورهافة الحس، ومناجاة الهمس، ولغة الزهور، وخفقة الروح والقلب، والهيام الحالم في طيف محبوب، والوفاء.. والإخلاص.. إلى ما لا نهاية.

ويأتي القرن العشرين.. بواقعيته الشديدة الوطأة، والشديدة القسوة، وجيل متسرع لاهث متعجل، لا يتذوق هذه اللغة.. ولا يستسيغها، ولا يبهره معنى رائق.. أو لمحة شفافة، فهو يسعى للاستيعاب السريع النبض.

وسميرة في لغتها القصصية.. تجنح إلى تأكيد الانتماء، فهي لصيقة بأرضها.. ووطنها، ويسعدها.. ويشرفها.. بل إنه من دواعي فخرها.. أن تلقب باسم «بنت الجزيرة العربية» ويحن وجدانها لأرضها.. فلا تنفصل عنه، وفي كل مكان.. بعيد عن جزيرتها. هي غريبة.. في غير أوطانها.. فالجذور ثابتة قوية.. تعبر عنها.. بلغة الحب.. والانتماء.

واللغة الروائية.. عند الكاتبة.. بها تحكم واضح في وحدات بناء الرواية، وتتسلسل الحوادث تلقائية في بساطة محببة.. تشد القارىء، وتذيب وجدانه.. تعاطفاً مع أبطالها، لأن اللغة التي كتبت بها هي «لغة القلب» والرواية عندها لها معنى.. ومغزى.. وهدف.. ومضمون، يشكل الغرض الأساسي من كتابتها، وهي لغة من واقع صميم الحياة.. فيها عبرة وعظة، ليس عن تفاخر أو تحايل أو ادعاء.. هي أحداث.. تجري بها سطور الرواية في صدق.. عميق، ولغة عربية أصيلة، تلمس الوتر الحساس.. من الناحية الإنسانية.. وتبعث فيه العزة والكرامة.. والانعطاف.. والتعاطف لمعاناة أبطالها، كما تعاطفنا معها في روايتها التي نحن بصددها في هذه الفقرة.. وهي رواية.. «ذكريات دامعة».

والحب.. كما سبق وأوضحنا.. وحلّلنا.. هو اللغة الرئيسية في أدب سميرة خاشقجي، فالحب عندها.. مرادف للانتماء، والحب.. هو الذي يكسب الوجود الإنساني.. معنى.. وهدفاً، وقيمة معنوية وفكرية.. وأدبية، والحب هو.. الخير.. والنقاء والصفاء، الحب هو.. البذل والعطاء، وعن أصالة الجذور الوطنية والاجتماعية والأسرية.. وهي تدعو دائماً إلى مجتمع الحب.. بعيداً عن الأحقاد السوداء.. التي تقتل أجمل ما في الإنسان، وتسرق من أوقات الهناء.. ولحظات السعادة.

إنها مدرسة تشرح فيها معنى الفرح، ومعنى الحب، ومعنى الأمل، ومعنى الدموع، فالدموع لا تصدر إلاّ من قلب نقي.. والذكريات الدامعة.. لا يعيش فيها إلاّ كل إنسان نقي الفكر.. والقلب.

وفي تعبير كتبته «بنت الجزيرة العربية».. لإيضاح مفهوم الحب الحقيقي.. تقول:

«إن السعيد هو الذي يحيط نفسه بأكبر عدد من السعداء.. يبحث عن الذين نسيهم الزمن.. فيحاول أن يسعدهم، ويحاول أن يكون في قلبه فائض من الحب ليسعد محروماً، وفي جيبه فائض من المال ليطعم جائعاً، وفي

صدره فائض من التسامح والغفران.. لمن أراد به سوءاً. إن الحب يملأ القلوب بالأمل.. ويبعث في النفوس حرارة الكفاح والنضال». فهي في لغتها.. لا تصر على لغة بعينها التي تعني.. حب رجل وامرأة، ولكن الحب عندها.. مشمول.. متكامل.. وظلاله وارفة.. تسعد بها كل قلب، وتعطي.. ما دام في مقدورها العطاء، وهذه هي قمة الشفافية التي ظهرت في المذاهب الرومانسية. فقد كانت التضحية بالنفس.. في سبيل المحبوب.. هي غاية كل محب.. والهبة والعطاء بلا حدود.

وسميرة بنت الجزيرة العربية.. تفخر بكونها عربية، وتعتز بقلمها وفكرها العربي، فهي لا تتمسح في ذيول الغرب بفكرة أو لغة.. أو حياة، بل تنادي بعظمة فكر وعطاء.. ومآثر المرأة العربية، وترى أن المرأة عنصرٌ إيجابيٌ ومشاركٌ في الحياة العامة.. وهي دائماً عاملة ومنتجة.. ومدرِّسة.. نموذجاً وقدوة.

وتعلن صوتها في كل لغة.. وفي كل رؤية.. بأن المرأة العربية كرَّمها الإسلام، ورفعها من مهبط العبودية إلى منزلة الإنسانية، وجعل الجنة تحت قدميها أماً.. والخير بين يديها.. ابنة.

* * *

وفي فجر الإسلام.. تبوأت المرأة مكانة سامية رفيعة، وما زالت مكانتها.. متقدمة على مكانة المرأة في كل مكان، وأي مكان آخر في العالم كله.. بما في ذلك الدول التي نعرفها باسم «الدول المتقدمة».

وهي تذكر على سبيل المثال، أنها عندما قدمت ورقة عمل عن المرأة العربية.. في المؤتمر العالمي للمرأة.. الذي عقد في كوبنهاغن، في عام المرأة العالمي، أن المرأة الأوروبية قد ذهلت من تلك الحقوق التي حصلت عليها المرأة في الإسلام، وما زالت هي غير قادرة حتى الآن.. على الحصول.. على نصف هذه الحقوق.

* * *

والمرأة العربية.. قادرة على أن تضيء مشعل الحضارة، وأن تشق طريق الحاضر والمستقبل.. وهي وراء كل عمل عظيم.

ولقد كانت «أسماء بنت أبي بكر».. هي التي علمت «عبد الله بن الزبير».. أن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها، فاندفع شجاعاً مؤمناً.. مقاتلاً حتى لقي وجه ربه.

ولقد كانت الخنساء.. هي التي تغنت بأولادها الأربعة.. وقد استشهدوا في سبيل الله، وبعد أن كانت قد ملأت الدنيا بكاء من أجل أخيها في الجاهلية.

لقد تغيرت نظرة المرأة.. وتغيرت صورة الحياة، وتغير فكرها.. وقلمها، وانطلق في آفاق محلّقة من العلم والفكر.. والمعرفة، وأصبحت مشعلاً مضيئاً.. يشع بنوره على كل من حوله.. ليعلن مكانة المرأة العربية.. من منطلق الفكر والقلم.

لقد بدأت «سميرة محمد خاشقجي» الكاتبة السعودية.. رحلتها مع القلم وهي ما زالت على مدارج الصبا، حيث قدمت كتابها الأول «ودعت آمالي».. ثم قدمت بعد ذلك العديد من الروايات الطويلة التي قمنا بتحليل بعضها في هذه الدراسة، وأفاضت هي.. في دراستها الاجتماعية ومقالاتها الحية.. من خلال مجلتها الشرقية.

وقد استطاعت «سميرة خاشقجي».. بنت الجزيرة العربية.. أن تلفت أنظار النقاد والمثقفين.. والقراء.. بإنتاجها الفكري.. المتطور، فأصبحت الرائدة للمرأة السعودية الحديثة، وأتاحت الفرصة لمشاركة المرأة في نهضة بلدها.. ثم أضافت مجالاً جديداً، أعطت فيه للمرأة العربية.. نبض الحياة العصرية، فكان أن قدمت مجلة «الشرقية» لتكون ربيع الصحافة النسائية العربية، وصوت المرأة الحديثة، وأعلنت أفكارها على صفحات هذه المجلة، وعبرت من خلالها عن مشاكل الحياة والمجتمع.. وصورة الأمل.. والمستقبل، وأنارت أمام المرأة العربية.. طريق هذا المستقبل..

لترى فيها نفسها، ويرى فيها الرجل.. صورة الأخت والشريكة، وفكر زميلة الحياة.. ورفيقة الدرب.

وسميرة خاشقجي من مواليد مكة المكرمة، حصلت على بكالوريوس في الاقتصاد من جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية.. ثم اختارت أن يكون عطاؤها في ميدان الفكر، استكمالاً لرسالة أدبية.. ناتجة عن موهبة فطرية، وقلم معبِّر فيَّاض بكل المعاني الإنسانية.. والتحليل الوجداني، وكان لصدى رواياتها.. في النفس.. مكانة عالية مرموقة.

* * *

والدموع هي لغة «عيون المرأة» وتعبير الدموع يبرز في معظم كتابات «بنت الجزيرة العربية» لأنها صدى النفس المنسحقة، والروح الهائمة. في دنيا البشر، وهي ترطيب لمشاعر تلتهب وتحترق.. ولا تطفئها إلا الدموع.

فمن «ذكريات دامعة» إلى «قطرات من الدموع» كتبتها من واقع الحياة.. في قطرات دمع.. تدمي القلب، وتشعل النار في حنايا المرأة، قطرات تنذر بالوداع الأخير.. فما الحياة إلا بسمات ودموع، لقاء وفراق، حياة وموت، ولكل شيء.. بداية ونهاية.. وهذه هي الحياة.

ورواية «قطرات من الدموع» تبدأ في صحراء «نجد» وعلى مشارف إحدى الواحات، تعيش جماعة من الأعراب في خيامهم المتناثرة.. هنا.. وهناك.. يقومون برعي الغنم، ويسمرون في المساء.. بمطارحة الشعر حيناً.. والقصص أحياناً، تلك كانت حياتهم الراضية.. الرضية.. يعيشونها بنفوس هادئة مطمئنة.

ومن هؤلاء الأعراب.. كان «الشيخ محجوب» يعيش مع زوجته.. وابنته «ذكرى» وكان يكبر زوجته.. بعشرين عاماً.

وأتى ابن أخيه عامر.. ليعيش في دياره.. بعد وفاة والده وأمه، ونصب له الشيخ محجوب خيمة بجوار خيمته.. واحتضنه كولده.

وتصف الكاتبة زوجة الشيخ محجوب. ويبدو من وصفها.. التحيز للمرأة العربية.. فهي تقول:

«كانت «رقية» زوجة الشيخ محجوب ـ أم ذكرى ـ نشيطة للغاية، لا تتوانى عن أداء واجباتها كزوجة وأم.. مثل أي امرأة بدوية، فهي تنظف خيمتها.. وتعد الطعام لزوجها، وتصنع الخبز.. وتحلب اللبن.. وتصنع منه الجبن والزبدة.. وتغزل الصوف، وتصنع منه المشاليح والسجاد، وتقوم برتق ما فتق من الخيام. كل هذا النشاط.. وهي محجبة.. تلبس الزي النجدي.. الجلباب الطويل، وتضع على رأسها الشيلة.. وعلى وجهها اللثام، بحيث لا يظهر منه سوى العينان فقط.

كانت «رقية» نحيلة الجسد.. قصيرة القامة.. سوداء العينين.. تشعان ذكاء وسحراً وغموضاً وحيرة، ترى خلالهما جمال الصحراء.. ويسترسل خلفها شعرها الأسود الطويل.

* * *

وفي النهاية.. نجد أن لغة الحب.. هي اللغة السائدة في أدب «سميرة خاشقجي»، فهي لغة.. بعيدة المدى، عميقة المعنى.. رحبة.. صادقة، متأججة الشعور والوجدان، في تعبيراتها آلام المحب.. ومعاناة النفوس المعذبة، وهي ذاتها.. نفس تعيش.. لتشعر وتتألم.. وتمتزج آهاتها ودموعها.. بدموع المحبين.

ففي «قطرات من الدموع» ووداع عامر.. لرقية.. نرى عمق المناجاة.. وصدق المشاعر.. حين يقول لها:

«لقد أحببتك حباً لا نظير له.. لو قسم على قلوب الناس جميعاً.. ما ترك فيها مكاناً لبغض أو حقد، والحب كما يقولون.. قطرة غيث صافية.. تنزل بالتربة الطيبة.. فتثمر.. الرحمة والشفقة والبر والإحسان.

كان الحب يجمعهما على الوفاء والحرمان، هي «رقية».. زوجة عمه.. وهو ابن الأخ.. لزوج شيخ.. ولكن الطهارة والنقاء.. كانا ظلال هذا الحب».

وأشد ما لقيت.. من ألم الهوى..

قرب الحبيب.. وما إليه وصول..

كالعيس في البيداء.. يقتلها الظمأ..

والماء فوق ظهورها.. محمول..

* * *

وتختتم روايتها.. بلغتها المميزة.. التي تنبض بحرار الحب، ولغة القلوب ولكن على لسان ذكرى.. ابنة «رقية».. وهي تناجي حبيبها.. لمأساة تكررت:

«حبيبي.. سأعيش على ذكراك.. فهي محفورة في قلبي.. بحروف من نور، وإن كانت بين ضلوعي.. ناراً ولهيباً.. يشتد.. فيترجمها قلمي.. صفحات من ضياء.. تصحيحاً لأوضاع ذهبنا ضحاياها».

«الأم والابنة.. كلتاهما.. قاستا من مجتمع ظالم.. وتقاليد بائدة.. ذبحت على مذبحها.. ضحيتان».

* * *

لقد عاشت «سميرة خاشقجي».. ورحلت.. وقلمها لا يعرف إلاّ الصدق والحب، ولغتها لا تنبض إلاّ بالحقيقة، إنها لغة الأديب الصادق مع نفسه.. ومع قلمه.

* * *

ـ قالوا عنها في مصر: «شجرة الحب»

ـ ولقد عاشت «سميرة خاشقجي» أجمل أيام حياتها فوق أرض مصر.. وشعرت بأنها في بيتها وبين أهلها.. وهي تعترف.. بأن هناك كثيراً

سميرة خاشقجي
في أول حضورها إلى مصر

من الملامح الاجتماعية بين الإنسان المصري.. والإنسان السعودي.. ـ القلب المفتوح ـ والضمير النقي ـ والنفس الصافية ـ والأخلاق الطيبة...!

ولقد شاركت الأديبة سميرة خاشقجي «بنت الجزيرة العربية» في خلق حياة اجتماعية جديدة للمرأة السعودية..! وخاصة بالنسبة للفتاة الجديدة.

وقالوا عنها في مصر.. أنها «شجرة الحب» لعطائها.. ووصفوها:

«بأن في عينيها.. نظرة عميقة.. كأنها تبحث عن جوهرة.. من أعماق الحياة..

ومن قلبها.. فيض وحب للحياة.. تؤكده كلماتها المأثورة:

«الحياة جميلة.. حين نحياها.. مؤلمة.. حين لا نحياها....!».

ـ وفي قلمها شفافية الشاعر.. ورؤية الفنان.. وصدق الإنسان.. وموهبة الكاتب.. وتلتقي كل هذه الأصالة.. في كل ما تكتبه من كتب.. وروايات.. ومقالات!.

وهي.. في كل ما تكتب.. تدور في دائرة الحب.. والأمل.. الحب الذي ينتصر على الأحقاد.. والشرور.. والأمل الذي يمسح الدموع.. ونزيف الجراح.. ويؤكد أن الحياة.. فوق الألم.. وأن الغد.. أفضل.. وأسعد من الأمس.. ويكفي زاداً لذلك.. أن نعيش على الأمل.. فهو بلسم لكل الجراح!.

* * *

هذه هي.. «سميرة محمد خاشقجي» بنت الجزيرة العربية.. وشجرة الحب..